الفصـل الأول

ملامح أمريكا الشمالية

تنقسم أمريكا الشمالية إلى إقليمين واسعين ، أحدهما يميل نحو القطب الشمالى ، والآخر نحو خط الاستواء - وادى المسيسبى - ما فيه من آثار تدل على ما حدث فى الكرة الأرضية من ثورات - شاطىء الأطلسى الذى قامت عليه المستعمرات الإنجليزية - ملامح كل من أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية المختلفة وقت استكشافها - غابات أمريكا الشمالية - البرارى - قبائل الأهالى الرحل - مظهرهم الخارجى وعاداتهم ولغاتهم - آثار شعب مجهول .

تتجلى فى الهيئة الخارجية لأمريكا الشمالية ملامح عامة معينة يسهل تمييزها لأول وهلة . فيبدو أن الطبيعة قد راعت نظاماً معيناً[1] فى فصل الماء عن اليابس ، والجبال عن الأودية . ففى وسط اضطراب الأشياء وفوضاها ، ووسط المناظر المنوعة كل التنوع ، تجلى نظام ساذج ، ولكنه جليل رائع .

تنقسم القارة الأمريكية إلى إقليمين عظيمين متساويين تقريباً ، يحد أحدهما شمالاً بالقطب الشمالى ، ويحده شرقاً وغرباً المحيطان العظيمان ، ويمتد جنوباً على شكل مثلث تتلاقى أضلاعه غير المنتظمة فوق بحيرات كندا العظمى .

ويبدأ الإقليم الثانى حيث انتهى الأول ، ويشمل باقى سائر القارة . فبينما ينحدر الأول انحداراً لطيفاً نحو القطب ينحدر الآخر نحو خط الاستواء .

وتنحدر أراضى الإقليم الأول نحو الشمال انحداراً لطيفاً يكاد لايحس ، حتى أنّا لانعدو الصواب إن عددنا أراضى هذا الإقليم سهلاً . ولا توجد فى هذه الأراضى المستوية المترامية الأطراف جبال عالية ، ولا أودية عميقة ، فمجارى الأنهار تتثنى فى هذا السهل فى غير انتظام . فترى الأنهار الكثيرة تتعانق ثم تنفصل ، ثم تعود فتلتقى مرة أخرى ، وتنتشر فى مناقع عميقة واسعة ، ويختفى كل أثر لمجاريها فى متاهات المياه التى خلقتها هى نفسها ، ثم ينتهى بها الأمر أن تصب مياهها فى البحار القطبية بعد تعرجاتها وتثنياتها التى لاتعد

---

(١) من نافلة القول أن نذكر القارىء أن هذا الوصف الجغرافى بعد الآن ناقصاً وعتيقاً . فلم يكن أمام المؤلف سوى بضعة مراجع أمريكية مليئة بالإحصاءات والحقائق الجافة . ويبدو أن أهم مرجع له كان كتاب الجغرافية العالمية لمؤلفه . مالطبران (Maltabrun) المتوفى سنة ١٨٢٦ وهو كتاب لم تكن تخلو منه مكتبة عامة فى فرنسا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . وقد نقل أجزاء منه إلى العربية علامتنا المصرى رفاعة بدوى رافع الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣) وأسماه الجغرافية العمومية ، ويوجد منه فى دار الكتب المصرية جزءان غير متتاليين ، وكان رفاعة بك فى باريس (١٨٢٦ - ١٨٣١) مع البعثة الأولى التى سافرت إلى فرنسا ، وحضر ثورة سنة ١٨٣٠ بها .

ولاتحصى . هذا ، وليست البحيرات العظمى التى تحد هذا الإقليم محوطة بالتلول والصخور مثل معظم البحيرات التى فى الدنيا القديمة ، ذلك إلى أن ضفافها مستوية لاترتفع عن مستوى مياهها إلا ببضع أقدام ، وبذلك يكون كل منها أشبه بجفنة واسعة ممتلئة حتى حافتها ، فأقل تغيير يحدث فى بنية الكرة الأرضية يجعل مياهها تتدفق إما نحو القطب ، وإما نحو البحار المدارية .

أما الإقليم الثانى فسطحه أكثر تضاريس وأكثر ملاءمة لسكنى بنى الإنسان ، وتفصله عن الأول سلسلتان طويلتان من الجبال ، تسمى إحداهما بجبال الألجانى ، وتجرى حذاء شاطىء المحيط الأطلسى ، على حين تجرى الثانية موازية للمحيط الهادى .

والأراضى التى بين سلسلتى الجبال هاتين تشمل ٢٢٨٨٤٣ فرسخاً[١] مربعاً ، فسطحها يعادل مسطح فرنسا ست مرات تقريباً .

وتكوّن هذه الأراضى الواسعة مع ذلك وادياً ينحدر أحد جانبيه من قمم جبال الألجانى المستديرة ، على حين يرتفع الجانب الآخر ارتفاعاً متصلاً حتى يبلغ قمم جبال روكى . ويجرى فى قاع هذا الوادى نهر عظيم نستطيع أن نرى المياه الدافقة من الجبال وهى تصب فيه من كل جانب . وقد أطلق الفرنسيون على النهر اسم (سان لوى) تخليداً لذكرى بلادهم الأصلية ، أما الهنود فقد أسموه بلغتهم الفخمة بأبى الأمواه ، أى المسيسبى .

وينبع نهر المسيسبى هذا من حدود الإقليمين العظيمين اللذين أشرنا إليهما ، غير بعيد عن أعلى قمة فى الهضبة التى تفصلهما الواحد عن الآخر . وعلى مقربة من هذه البقعة نفسها ينبع نهر آخر[٢] ويصب فى البحار القطبية . ويبدو مجرى المسيسبى فى أول أمره كما لو كان غير واثق من نفسه ، فيتثنى عدة مرات نحو الشمال حيث ينبع ، وأخيراً ، بعد أن يتعطل فترة من الزمن فى البحيرات والمناقع ، يتخذ اتجاهه المحدد ، ويسير فى بطء تجاه الجنوب .

فأحياناً يسير فى هدوء فى مجراه الطباشيرى الذى خصصته له الطبيعة ، وأخرى تمتلىء جوانبه بالفيضان ، ويروى ما يزيد على ١٠٣٢ فرسخاً تقريباً . وعلى بعد ٦٠٠ فرسخ من المصب يبلغ متوسط عمق النهر خمسة عشر قدماً ، فتسير فيه السفن التى حمولتها ٣٠٠ طن

---

(١) يلاحظ أن المؤلف يستعمل هنا المقاييس القديمة التى تعلمها فى صغره ، وقلما يستعمل المقاييس المترية ، شأنه فى ذلك شأن الكثيرين من معاصريه ، وقد يكون ذلك ليضفى على كلامه صبغة كلاسيكية . والفرسخ كلمة فارسية يقابلها عند الفرنسيين **lieu** وعند الإنجليز **league** وهو مقياس للأطوال والسطوح اختلف مقداره باختلاف البلاد والعصور ، ويعادل فى الجملة ثلاثة أميال .

(٢) يقصد النهر المعروف بالنهر الأحمر (رد ريفر) الشمالى وهو يصب فى بحيرة ونيج لا فى البحار القطبية كما يقول المؤلف . وطوله قرابة الستمائة ميل .

قرابة مائتى فرسخ . وبين روافد المسيسبى واحد طوله ١٣٠٠ فرسخ[١] ، وآخر طوله ١٠٠[٢] ، وثالث طوله ٦٠٠[٣] ، ورابع خمسمائة[٤] ، ثم أربعة طول كل منها ٢٠٠[٥] . وفضلاً عن هذا كله فثم عدد لايحصى من المجارى الصغيرة التى تتدفق من كل جانب وتلقى مياهها فيه .

ويبدو الوادى الذى يرويه المسيسبى كأنما خلق له وحده ، ففيه يوزع النهر الخير والشر كما لو كان إلهاً من الآلهة القدامى . وقد جعلت الطبيعة قرب مجراه خصباً لا ينفد ، ولكن كلما بعدنا عن ضفتى النهر قل النبات ، وقلت خصوبة التربة ، وضعف كل شىء أو تصوَّح وهلك . هذا ولم يحدث أن خلفت الهزات والتغيرات الأرضية آثاراً وراءها بأوضح مما خلفته فى وادى المسيسبى هذا . فأراضيه كلها تكشف لنا عن تأثير المياه القوى من حيث الخصوبة والجدب . فمياه المحيط العتيق أدت إلى تراكم طبقات هائلة من النبات المتعطن فى الوادى سوتها وهى تتراجع . وعند ضفة النهر اليمنى نجد سهولاً مترامية الأطراف ، منبسطة كأنما مر الفلاح عليها « بقصابيته » . وكلما اقتربت من الجبال قل استواء الأرض ، وازدادت قحولتها كأنما الأرض قد اخترقتها فى آلاف المواضع صخور أولية تجلت كأنها عظام هياكل عرَق الزمن ما عليها من لحم . وتغطى - الأرض - رمال جرانيتية ، وكتل غير منتظمة من الحجر نبتت خلالها نباتات قلائل جعلت سطح الأرض على صورة حقل مخضر تغطيه أطلال مبنى ضخم . ويتضح من فحص هذه الأحجار ، وتلك الرمال أنها تشبه تمام الشبه الأحجار والرمال التى تتكون منها جبال روكى القحلة . فقد اكتسحت فيضانات الأنهار التربة ودفعت بها إلى الوادى ، ثم حملت أجزاء من الصخر نفسه وتركتها مبعثرة محطمة عند سفوحها بعد اصطدامها بالصخور المجاورة وتهشمها .

ويعد وادى المسيسبى فى جملته أروع مثوى هيأته العناية الإلهية لسكنى البشر . ومع ذلك فلك أن تقول عنه الآن أنه لايعدو أن يكون صحراء مترامية الأطراف .

وتقوم شرق جبال الألجانى ، بين أسافل هذه الجبال والمحيط الأطلسى سلسلة طويلة من صخر ورمال يبدو أن البحر قد خلفها وراءه عند تراجعه . ولا يزيد متوسط عرض هذه الأراضى على ٤٨ فرسخاً (١٠٠ ميل) ، على حين يبلغ طولها الثلاثمائة فرسخ (حوالى ٩٠٠ ميل) ، ولهذا الجزء من القارة الأمريكية تربة فيها كل عقبة يمكن أن تعوق عمل الفلاح ، ذلك إلى أن نباتها قليل ولا تنوع فيه .

فعلى هذا الشاطىء غير المضياف قامت أول جهود جماعية من عمل الإنسان . فهذا اللسان من الأرض القاحل كان مهد المستعمرات الإنجليزية التى قدر لها أن تصبح الولايات

---

(١) يشير المؤلف إلى أنهار : (١) الميسورى ، (٢) والأركنزاس ، (٣) والنهر الأحمر ، (٤) والأوهايو .
(٥) ويقصد بها أنهار إلينوى ، وسانت بيير ، وسانت فرانسيس ، ودى موان .

المتحدة . ولا يزال مركز القوة هنا ، على حين غربيها تكاد تتجمع فيه سرًا العناصر الحقة لأمة ستتولى فى المستقبل الإشراف على شئون القارة .

عندما نزل الأوربيون لأول مرة شواطىء جزائر الهند الغربية ، ثم شواطىء أمريكا الجنوبية ، خيل إليهم أنهم انتقلوا إلى تلك الأقاليم الأسطورية التى تغنى بها الشعراء . فقد كان البحر يتألق بالأضواء الفسفورية ، ويكشف شفوف مياهه غير العادى لمرأى الملاح عن كل أعماق المحيط ، فيرى هنا وهناك جزائر صغارا يعبق منها أرج النباتات العطرية التى تشبه أسفاطاً من الزهر تسبح على سطح المحيط الهادى . فكل مايقع عليه النظر فى هذا الإقليم الساحر يبدو كأنه خلق لسد احتياجات البشر ، أو لإرضاء مسراتهم . فالأشجار جلها محملة بالفاكهة التى فيها غذاء للناس ، أما مالا يصلح منها له فمنظره يسر العين بحسن روائه وتنوع ألوانه . وعلى أشجار الليمون العبقة ، وأشجار التين البرى ، والآس المزهر ، والفتنة والدفلى ، وقد تعلقت بها أقواس من شتى أنواع النبات المتسلق ، وتغطت بالزهور ، – على هذه الأشجار ، حطت أسراب من العصافير الغريدة غير المعروفة للأوربيين تعرض رياشها الزاهية تتألق بالألوان الأرجوانية واللازوردية ، وتمزج تغاريدها بانسجام مع عالم حافل بالحركة والحياة .

ولكن وراء هذا المظهر الزاهى يجثم الموت نفسه . وتلك حقيقة لم تكن معروفة وقتئذ . فلهواء هذه الأقاليم أثر مضعف كل الضعف ، مما جعل الإنسان يتعلق بالحاضر دون أى اكتراث للمستقبل .

أما أمريكا الشمالية فيختلف مظهرها عن ذلك كل الاختلاف . فكل شىء فيها رزين متزن ، كأنما خلقت لتكون مقر ذوى العقول . على حين خلق الجنوب مرتعاً للراغبين فى اللذات الحسية . وثم محيط يغشاه الضباب وتصطخب أمواجه كل اصطخاب ، يحيط بشواطىء القارة جميعها – وهى شواطىء يحف بها نطاق من صخور الجرانيت ، ومساحات واسعة من الرمال . أما أوراق الأشجار فى غاباتها فمظلمة قابضة للنفس . فهذه الغابات تتكون من أشجار الشربين والبلوط الدائم الخضرة ، والزيتون البرى ، والغار .

ووراء هذا النطاق الخارجى تقوم الغابات الوسطى بظلالها الكثيفة . ففيها تنمو أضخم الأشجار التى فى نصفى الكرة الأرضية جنباً إلى جنب . وترى الدلب والكاتليا والاسفندان السكرى والحور والفرجينى تتعانق أغصانها مع أغصان السنديان والزان والزيزفون .

وكانت عوامل الفساد نشيطة فعالة فى هذه الغابات تعمل فيها كما تعمل فى غابات العالم القديم . فلا غرو أن تكدست بقايا النبات وحطامه أكواماً بعضها فوق بعض ، فليس ثمة أيد عاملة تزيلها . ذلك إلى أن الفساد لا يعمل فيها بالسرعة الكافية التى تفسح المجال للإنبات الجديد باستمرار . ونرى النبات المتسلق والحشائش وغيرها من الأعشاب

تشق طريقها خلال أكوام الشجر المتصوح تزحف حول سيقانه الملتوية لتجد لها غذاء فى ثغراتها الكثيرة التراب ، وممراتها تحت اللحاء الجاف الخالى من الحياة . وهكذا يعاون التحلل فى إيجاد الحياة ، ويختلط نتاج كل منهما بالآخر . وكانت أعماق هذه الغابات مظلمة كئيبة ورطبة باستمرار من جراء آلاف النهيرات التى تجرى فيها على طبيعتها دون أى توجيه أو ضبط من الإنسان . وكان من النادر أن يصادف المرء فى خلال هذه الغابات أزهاراً أو فاكهة برية أو طيوراً ما ، فسقوط شجرة من أثر الشيخوخة ، وتدفق سيل من مسقط مائى ، وخوار الجاموس وزئير الرياح – هى كل الأصوات التى تقطع على الطبيعة صمتها فى تلك الغابات .

هذا ، وتكاد جميع الأشجار تختفى شرقى النهر العظيم ، وتظهر بدلاً منها البرارى الفسيحة والسهوب المترامية الأطراف . ولسنا ندرى إن كانت الطبيعة بما فيها من تنوع لاحد له ، قد حرمت بذور الأشجار على هذه السهوب الممرعة ، أو أنها كانت من قبل مغطاة بالغابات ثم اجتثتها يد الإنسان وقضت عليها . تلك مسألة عجزت الرواية ، وعجز البحث العلمى عن الإجابة عليها .

ومع ذلك لم تكن هذه البرارى المقفرة المترامية الأطراف غير مأهولة تماماً . فقد جاست خلالها بعض القبائل الرحل التى ظلت مبعثرة فى ظلال الغابات دهراً طويلاً ، أو على ما فى هذه البرارى من مراع خضر . فمن مصب نهر السانت لورانس إلى دلتا المسيسبى ، ومن المحيط الأطلسى إلى المحيط الهادى ، نشاهد وجوه شبه كثيرة بين هؤلاء المتوحشين تنبىء عن وحدة أصلهم جميعاً ، ولكنهم كانوا فى الوقت نفسه يختلفون عن سائر أجناس البشر المعهودة ، فهم ليسوا بِيضًا كالأوربيين ، ولا صُفراً مثل غالبية الآسيويين ، ولا سوداً مثل الزنوج ، بل بشرتهم سمراء ضاربة إلى الحمرة ، وشعرهم سبط طويل ، وشفاههم رقاق ، ووجناتهم بارزة . وكانت اللغات التى تتحدث بها قبائل أمريكا الشمالية مفردات منوعة ، وإن كانت كلها خاضعة لقواعد معينة من قواعد النحو ، تختلف من عدة وجوه عن القواعد المرعية فى أصل اللغة ، ويبدو أن لهجات الأمريكيين جاءت نتيجة تشكيلات جديدة ، وتظهر فيها جهود عقلية يشق على هنود أيامنا أن يبذلوها .

وكانت أحوال هذه القبائل الاجتماعية مختلفة كذلك من نواح كثيرة عن كل ما هو معهود فى الدنيا القديمة . وغالب الظن أنهم تكاثروا بحرية وسط صحاراهم وقفارهم من غير أن يتصلوا بأجناس أخرى أرقى منهم حضارة . ومع ذلك لم يظهر فيهم شىء من تلك الأفكار الغامضة غير المنسقة عن الحق والباطل ، ولا شىء من ذلك الفساد فى الأخلاق والسلوك الذى يقترن عادة بالجهل والغلظة عند الأمم التى ، بعد أن قطعت شوطاً غير قصير فى سبيل الحضارة ، عادت وانتكست إلى حالة من الوحشية . فلم يكن الهندى مديناً لأحد غير نفسه بشىء ما . ففضائله ورذائله وكل ما يتعصب له ، جميعها من عمله هو ، فقد نشأ ونما وسط طبيعته الوحشية المستقلة .

فإن كانت أدنى طبقات الناس فى البلاد المهذبة غلاظاً جفاة ، فليس يرجع ذلك كله إلى فقرهم وجهلهم فحسب ، بل يرجع كذلك إلى أنهم يتصلون كل يوم بأناس أغنياء مستنيرين ، فمنظر ما هم فيه من فقر ومن ضعف يتكشف لهم جليا كل يوم بمقابلته بما ينعم به بعض بنى جنسهم من سعادة ومن قوة ، فيستثير فى نفوسهم الغضب والخوف . فشعورهم بقصورهم وضعفهم ، وبتبعيتهم لغيرهم ، يحنقهم ويذل نفوسهم . وتتجلى هذه الحالة النفسية فى عاداتهم الأخلاقية وفى لهجاتهم وطرق تعبيرهم ، فهم وقحون وأذلاء معاً . ومن الميسور التدليل على صحة ذلك بالملاحظة والعيان . فالدهماء أكثر غلظة وجفوة فى البلاد الأرستقراطية منهم فى غيرها . وهم فى المدن الغنية أكثر منهم فى الريف . فحيث يجتمع الأغنياء والأقوياء يشعر الفقراء والمستضعفون بأنهم مظلومون فى حالتهم التى هم فيها . وإذ لا يجدون أمامهم مجالاً لاستعادة حقهم فى المساواة ، فسرعان ما يستولى عليهم اليأس ويتركون أنفسهم تهبط إلى مستوى دون الطبيعة الإنسانية .

فتأثير تباين الأحوال المنكود هذا ، لا يشاهد فى حياة الناس البدائيين . فإن كان الهنود كلهم جهلة وفقراء ، فهم جميعاً أحرار ومتساوون .

فعندما حَلّ الأوربيون لأول مرة بين أهالى أمريكا الشمالية وجدوا هؤلاء الأهالى يجهلون قيمة الثروة ، ولا يحفلون بالسعادة ولا بالمسرات التى يحصل عليها الإنسان المتحضر بواسطة الثروة والمال ، ومع ذلك لم يكن فى سلوكهم أية خشونة أو جفوة ، وكانوا يمارسون عادة التحفظ ، على طريقتهم ، ونوعاً من الأدب الأرستقراطى .

فهم قوم لطاف يكرمون الضيف فى السلم ، أما فى الحرب فهم قساة لا يرحمون ، ويزيدون فى قسوتهم على كل ما فى البشرية من وحشية . فترى الهندى يعرض نفسه للموت جوعاً كى يسعف غريباً وقف بباب كوخه يستضيفه ليلة ، ومع ذلك فهو لا يتردد لحظة فى أن يمزق بيديه أعضاء أسير وقع فى يديه ، وهى لاتزال حية تنبض . إنا لم نر فى الجمهوريات القديمة الشهيرة مثالاً لشجاعة لا تخيم ، ولا لنفوس أشد صلفاً وكبحاً ، ولا محبة عارمة للاستقلال أكثر مما كانت تخفيه غابات الدنيا الجديدة المتوحشة . فلم يُحدث الأوربيون فى نفوس هؤلاء الهنود أى تأثير يذكر عندما نزلوا بينهم على شواطىء أمريكا ، فوجودهم لم يستثر فيهم حسداً ولا خوفاً . فأى تأثير يستطيعون أن يحدثوه فى أمثال من وصفنا من هؤلاء الرجال ! إن الهندى يستطيع أن يعيش من غير أن يشعر بحاجات تنقصه . إنه يعانى ما يعانيه دون أن يشكو ، ويندفع ينشد أناشيد الحرية وهو يحرق مشدوداً إلى خازوق . ولكن الهنود يعتقدون ، كما يعتقد سائر الناس ، بوجود آخرة خير من هذه الدنيا ، ويعبدون الله بارىء الكون ، وإن كانوا يسمونه بأسماء شتى مختلفة ، وكانت آراؤهم عن الأمور العقلية ساذجة ، وذات صبغة فلسفية فى جملتها[1] .

---

(١) لاشك أن وصف المؤلف للرجل البدائى هذا ، ينم عن تأثره بآراء جان جاك روسو فى هذا الموضوع .

فإن وصفنا هنا شعباً بدائياً ، فليس يخامرنا أى شك فى أن شعباً آخر أكثر منه حضارة ورقيا ، من وجوه عدة ، قد سبقه إلى سكنى هذه الأقاليم .

وثَمَّ رواية غامضة استفاض ذكرها بين الهنود الحمر القاطنين على شواطىء المحيط الأطلسى ، تقول بأن هذه القبائل كانت تسكن من قبل على الجانب الغربى من نهر المسيسبى . وكثيراً ما وجدنا على ضفاف نهر الأوهايو ، وفى الوادى الأوسط كله ، حتى فى يومنا هذا ، أكواماً أثرية من صنع الإنسان . فبعد فحص أكوام التراب هذه ، والتمكن من الوصول إلى باطنها ، وجدنا عظاماً بشرية وآلات غريبة وأسلحة وأدوات شتى من المعدن مخصصة لأغراض يجهلها الجنس الحاضر .

لا يستطيع الهنود الحمر الذين فى عصرنا أن يقدموا لنا أية معلومات عن تاريخ ذلك الشعب المجهول . ولم يكن لدى أولئك الذين عاشوا منهم منذ ثلاثمائة عام عندما استكشفت أمريكا لأول مرة ، أى شىء يقولونه نستطيع أن نستنبط منه أى فرض من الفروض . فالرواية ، وهى تلك الآثار الهشة التى يتكرر حدوثها باستمرار فى العالم البدائى ، لا تلقى أى ضوء ينير السبيل أمامنا . ومع ذلك فقد عاش هنا آلاف من البشر - وهو أمر لا شك فيه . فمن أين جاءوا ؟ وما أصلهم يا ترى ؟ وما مصيرهم المقدور عليهم ؟ وما تاريخهم ؟ ومتى اختفوا ؟ وكيف كان اختفاؤهم هذا ؟ ليس من مجيب .

إنه لمن أغرب الأمور أن توجد شعوب على الأرض ثم تختفى عنها تمام الاختفاء وتزول كلها حتى ذكرى أسمائها ، فتضيع لغاتها ، وتفنى أمجادهم كما يفنى الصوت دون أن يستحدث أى صدى . ومع ذلك فمن المحتمل أن يكون كل شعب من هذه الشعوب قد خلف وراءه قبرا يشهد بأنه كان موجوداً فى يوم من الأيام ، وعلى هذا يكون أخلد أثر لأعمال الإنسان هو ما يذكرنا ببؤسه وبتفاهته .

فمع أن الأقاليم الواسعة التى وصفناها توًّا كان يسكنها قبائل أهلية كثيرة ، فإنا لا نعدو الإنصاف إن قلنا إنها كانت صحراء واحدة مترامية الأطراف عندما استكشفها الأوربيون . لقد احتلها الهنود ، من غير أن يملكوها ، فالإنسان لا يملك الأرض الزراعية إلا بالعمل فيها وزرعها . أما سكان أمريكا هؤلاء ، فقد كانوا يعيشون على الصيد والطراد . فتعصبهم الشديد الذى لا هوادة فيه ، وشهواتهم الجامحة ، ورذائلهم ، بل وحتى فضائلهم الوحشية ، هى التى قضت عليهم بالهلاك المحتوم . لقد بدأ فناء هذه الشعوب يوم حلت أقدام الأوربيين شواطئهم ، وظل حتى أيامنا هذه . وإنّا لنشهد اليوم الإجهاز عليهم . فيبدو أن العناية الإلهية لم تلق بهم وسط ثروات الدنيا الجديدة إلا ليستمتعوا بها وقتاً معلوماً ، فهم لم يوجدوا فيها إلا انتظاراً لمجىء غيرهم . فهذه الشواطىء الملائمة كل الملاءمة للتجارة والصناعة ، وتلك الأنهار الواسعة العميقة ، ووادى المسيسبى الذى لا تنفذ

موارده ، وعلى الجملة ، هذه القارة كلها ، تبدو كما لو كانت قد أعدت لتكون مهداً لأمة عظيمة[١] .

ففى تلك البلاد قدر للإنسان المتحضر أن يحاول القيام بإجراء التجربة العظمى ، تجربة إنشاء المجتمع على أساس جديد . فطبقت فيها لأول مرة نظريات لم تكن معروفة من قبل ، أو قيل عنها أنها نظريات غير عملية ، وبذلك عرضت هذه النظريات على الدنيا مشهداً لم يكن التاريخ قد أعدها لمشاهدته .

(١) تسم أقوال توكفيل هذه عن وجهة نظر دينية إلى فلسفة التاريخ ، أوحت بها إليه آراء بوسيويه وأمثاله ممن يفسرون التاريخ تفسيراً دينياً ، فهم يفسرون سقوط حضارة ، وقيام أخرى أزهى منها وأكثر تقدماً ، بأن هذه مشيئة الله تعالى ، التى قضت بأن تنهار الحضارة الوضيعة لتفسح المجال لقيام أخرى أرقى منها ، وأكثر ازدهاراً . فأغلب ما يذكره توكفيل عن الطبيعة وعن الإنسان أساسه ما ذكر هنا فى هذه الفقرات .